نورٌ من نور عاشوراء
الثّورة الإسلاميّة في إيران

السيّد محمّد حسين رئيس زاده*

«إنَّ علاقة الثَّورة الإسلاميّة في إيران بقضيّة عاشوراء، هي بالمعنى الفلسفي الوجودي علاقة المَعلول بالعلَّة. وهي بالمعنى التَّاريخي والنَّهضوي العلَّة الرَّئيسيّة والسَّبب الأساسي للحركات الإصلاحيّة والتَّحرُّريّة في العالم الإسلامي وخصوصاً في إيران».

مقال للسيّد محمّد حسين رئيس زاده، يلقي الضّوء على العناوين العقائديّة والجهاديّة التي استلهمها الإمام الخميني قدس سره من عاشوراء الإمام الحسين عليه السلام.

يُمكن القول إنَّ الحوادث والوقائع التي تجري في العالم هي على ثلاثة أقسام:

١. الحوادث التي تجري بدون اختيار أو إرادة جدِّيّة مِن القائم بها، فتَحدُث بدون تخطيط، كحوادث السَّيْر التي نشاهدها يوميّاً في العالم. وهذه الحوادث ليس وراءها رسالة ولا هدف ثقافي أو معنوي، ولا تَصلح لأن تكون أُسوةً للآخرين، ولا يوجد فيها دروس يُمكن الأخذ بها. بل إنَّ غاية الأمر هي أنْ تكون عِبرة للآخَرين.

٢. الوقائع التي تحدث بالإختيار والإرادة الجدِّيّة مِن القائم بها، ولكن ليس وراءها رسالة فكريّة أخلاقيّة ومعنويّة وسياسيّة، كالحروب التي قام بها بعض الملوك لفتح البلاد والأقاليم؛ فإنَّ هذه الوقائع أيضاً لا تَصلح لأنْ تكون أُسوةً للآخرين؛ لأنَّها لم تَحمل رسالة إلى الآخرين حتّى يتَّبعونها، بل إنَّ صاحب العلاقة قد لا يريد من الآخرين أن يتَّبعوه في هذا الأمر. وغاية الأمر أنّها هنا أيضاً عِبرة للآخرين. إنَّ هذه الحوادث والوقائع يُمكن أن نسمِّيها بالوقائع العارِضة أو الطَّارِئة، وهي تَحدُث في زمانٍ خاصّ تختصّ به، وتنتهي بانتهائه.

٣. الحوادث والوقائع التي تَحدث بالإرادة والتَّخطيط، وتحمل رسالة فكريّة وأخلاقيّة ومعنويّة وسياسيّة؛ ويريد القائم بها أنْ يَسلك الآخرون سلوكه، وأنْ تكون الواقعة أُسوة ونموذجاً للآخرين، كَحَركة الأنبياء في التَّاريخ، أو النَّهضة الإصلاحيّة في أوروبا، [مع فارق القياس]، إلخ.

وهذه الحوادث لا تبقى عادةً مَحصورة في ظرفها الزَّمني والمكاني، بل تَتجاوز الظُّروف الزَّمنيّة والمحليّة، وتَصلح لأنْ تكون أُسوةً ونموذجاً. وهذه الوقائع هي التي ولَّدت الحركات الإصلاحيّة والتَّحرُّريّة في العالم.

تَنتسِب واقعة عاشوراء إلى هذا القسم الثّالث مِن الحوادث في حياة الإنسان، وهي صالحة للإستمرار واقتداء الآخرين بها، لأنَّها حادثة إراديّة واختياريّة، وتتضمَّن فِكراً ومنهجاً ورسالة إلى الآخرين. والقائم بها يُريد لها أن تكون مِثالاً يُقتدى به لِسائر الثَّورات والحركات النّهضويّة في العالم.

ويمكن أن نقول إنَّ السِّرّ في إخراج الإمام الحسين عليه السلام لعياله وأهل بيته معه في مسيرته الإستشهاديّة، -مع علمه بأنّهم سوف يَقعون أسْرى بيَدِ الأعداء- هو أن تكون هذه الواقعة سبيلَ هدايةٍ للنَّاس ضدّ الطَّواغيت، وإحياءً للدِّين، وحفاظاً على الإسلام ومِلّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

والسِّرُّ أيضاً هو في تأكيد أئمّة الهدى عليهم السلام على إحياء هذه الواقعة من خلال حثّ المؤمنين على إقامة المسيرات ومجالس العزاء على مرِّ العصور والأزمنة، وذلك من أجل أن تتحوَّل إلى منهج وسلوك غايتُه إحياء الرِّسالة المُحمَّديّة.

الثَّورة الحسينيّة المُتَجَدِّدة

العلاقة بين عاشوراء والثَّورة الإسلاميّة في إيران: إنَّ علاقة الثَّورة الإسلاميّة في إيران بقضيّة عاشوراء، هي بالمعنى الفلسفي الوجودي علاقة المَعلول بالعلَّة. وهي بالمعنى التَّاريخي والنَّهضوي العلَّة الرَّئيسيّة والسَّبب الأساسي للحركات

* المستشار الثقافي للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة في بيروت

الإصلاحيّة والتَّحرُّريّة في العالم الإسلامي وخصوصاً في إيران.

ولذا فإنَّ قضيّة عاشوراء هي العلّة المُحدِثة والمُبقِية للثَّورة، وهي الرُّوح المستمرّ للنَّهضة الإسلاميّة المعاصرة.

لقد شَرِب شعبنا من هذه المدرسة وتربَّى على هَدْيِ كلماتها، وتخلَّقَ بأخلاقها، وعلى هذه المسيرة العظمى ترسَّخ حبُّ الحسين وأولاده وشعاراته في عروق شعبنا وأمَّتنا، فتجلَّى الدَّم الحسيني في حركتهم. فبالإقتداء بالإمام الحسين عليه السلام قاموا بالثَّورة بقيادة الإمام الخميني رضوان الله عليه، وهكذا في صيانتها والدِّفاع عنها واستمراريَّتها حتّى الآن.

وهذا ما أشار إليه الإمام رضوان الله عليه من خلال كلماته المأثورة:

- «إنَّ انتصار الثّورة الإسلاميّة كان مِن بركات تلك النَّهضة، لولا نهضة سيِّد الشُّهداء عليه السلام لَمَا استطعنا تحقيق النَّصر في ثورتنا هذه».
- «إنَّ ثورتنا هي امتداد لِنهضة الحسين عليه السلام، وإنَّها تَبَعٌ لتلك النَّهضة، وهي شعاعٌ مِن أشعَّتها».
- «كونوا على يقين مِن أنَّه لو لم تَكُن مواكب العزاء هذه موجودة، ولو لم تَكُن المواكب والمراثي موجودة لَمَا انطلقت إنتفاضة ١٥ خرداد (٥ حزيران ١٩٦٣)».
- «أجل، إنَّ الحقّ مُنتَصِر. لكنّ للنَّصر مفاتيح ورموزاً ينبغي لنا العثور عليها ومعرفتها "..." علينا أن نعرف رمز بقاء الشِّيعة طوال الزَّمن الماضي منذ عصر أمير المؤمنين عليه السلام حتّى الآن "..." إنَّ أحد هذه الرُّموز الكبرى -وهو أكبرها- قضيّة سيِّد الشُّهداء عليه السلام، وإذا أردنا أن يكون بلدنا مستقلّاً وحُرّاً ينبغي أن نحفظ هذا الرَّمز».
- وعن تأثير الثّورة الحسينيّة على المؤمنات يقول قدّس سرّه: «هذه المجالس هي التي خَرَّجَت أمَّهاتٍ يَفقِدْنَ أبناءهنَّ، ثمَّ يَقلنَ بأنَّ لديهنَّ غيرهم، وأنَّهنَّ مستعدَّات للتَّضحية بهم أيضاً. إنَّها مجالس سيِّد الشُّهداء ومجالس الأدعية من دعاء كميل وغيره، هي التي تَصنع مثل هذه النَّماذج وتَبْنيها».

لقد استَلهم الإمام الخميني رضوان الله عليه مِن الملحمة العاشورائيّة والمدرسة الحسينيّة، ما يُسدِّد قراراته الكبرى في تأسيس الثَّورة واستمراريَّتها. ولقد تزوَّد الشعب الإيراني بالثَّقافة العاشورائيّة ومعاني المدرسة الحسينيّة، التي تقوم ركائزها على عدَّة عناصر أساسيّة:

١- روحيّةُ الإستشهاد وثقافتها.

٢- المواجهة المستمرَّة لأهل الحقّ ضدَّ الباطل.

٣- مواجهة الطَّاغوت والإطاحة به.

٤- التَّبَعيَّة المحضة لله تعالى، وطلب رضاه، والتّسليم لأمره.

٥- الدِّفاع عن مصالح الأمّة والوطن.

٦- حماية المجتمع من الجريمة والفساد على قاعدة «الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر».

إنَّ علاقة الثَّورة الإسلاميّة في إيران بقضيّة عاشوراء، هي بالمعنى الفلسفي الوجودي علاقة المَعلول بالعلَّة. وهي بالمعنى التَّاريخي والنَّهضوي العلَّة الرَّئيسيّة والسَّبب الأساسي للحركات الإصلاحيّة والتَّحرُّريّة في العالم الإسلامي وخصوصاً في إيران

إنطلاقاً من أنَّ الثّورة الإسلاميّة في إيران هي وليدة المدرسة الحسينيّة، فسَنَجِد قواسم مشتركة بينهما، وهنا أُشير بالإختصار إلى بعضها:

١ - **في الغاية والهدف**: إنَّ أهداف هذه الثَّورة هي نفسها التي حمل رايتها الإمام الحسين عليه السلام من خلال نهضته العاشورائيّة؛ وعلى ما بَيَّن الإمام عليه السلام، فإنَّ هذه الأهداف هي: طَلَب الإصلاح في الأمّة الإسلاميّة، وتنفيذ الأحكام الإسلاميّة في المجتمع الإسلامي، وتأسيس الحكومة الإسلاميّة والرُّجوع إلى سيرة أبيه وجدِّه صلوات الله عليهما في الحكومة والدَّولة، والقيام ضدّ الطَّاغوت والسُّلطان الجائر النّاكث لعهد الله والمُستحِلّ لِحُرَمه تعالى.

في زمن الشَّاه المخلوع لم تُطبَّق الأحكام الدِّينيّة في المجتمع، وإنَّما كانت أحكاماً منسيَّة على مستوى الدَّولة والمؤسَّسات الحكوميّة. بل أكثر من ذلك، فقد كانت مهمّة الشَّاه ونظامه مركَّزة على إزالة مظاهر الإسلام في الدَّولة والمجتمع.

وكان أبوه قد عمد من قبل إلى إلزام النِّساء بِكَشف الحجاب، وتَعامَل مع المُلتزمات بالحجاب والعفَّة بالشِّدَّة، بل إنَّه قَتَل كثيراتٍ منهنّ في السَّنوات الأخيرة من حكومته لهذا السَّبب.

إضافةً إلى ذلك، فقد غَيَّر الشَّاه التَّقويم الهجري الشَّمسي الذي

يُشير إلى هجرة النّبيّ ﷺ، إلى التّقويم «الشّاهنشاهي» الذي يَرمز إلى طبيعة النِّظام الملكي في إيران قبل الإسلام بألف سنة، مع أنَّ خمسة وتسعين بالمائة من الإيرانيّين هم مسلمون وملتزمون بالإسلام وأحكامه.

قبل انتصار الثّورة، كان تركيز الشّاه ودعاياته عبر الصُّحف والمجلّات المنتشرة، والإذاعات والتّلفزات الإيرانيّة، ومناهج المدارس والجامعات الحكوميّة، على تحقير الدِّين وتضعيفه، وإلقاء الشُّبُهات حول الإسلام. كما أنَّه كان يَدعم مراكز الفساد والفحشاء، ويُشدّد الضَّغط في المقابل على المراكز الدِّينيّة.

خُلاصة الكلام، أنّ الحقّ -في زمن الشّاه- كان لا يُعمل به والباطل لا يُتناهى عنه، لذا قام الشَّعب الإيراني بثورته المُظَفَّرة بقيادة علماء الدِّين وفي مقدِّمهم الإمام الخميني، وأَسقط الشّاه ممهّداً بذلك لتطبيق أحكام الإسلام في المجتمع والدّولة.

٢- في القيادة: إنَّ قيادة كلتا الحركَتَين كانت قيادة دينيّة. في قضيّة عاشوراء كان الإمام المعصوم هو القائد، وفي الثَّورة كان نائب الإمام المعصوم هو القائد أيضاً.

الإمام الخميني قدس سره: «**هذه المجالس هي التي خَرَّجَت أمَّهاتٍ يَفقدْنَ أبناءهنَّ، ثمَّ يَقلنَ بأنَّ لديهنَّ غيرهم، وأنّهنَّ مستعدَّات للتَّضحية بهم أيضاً. إنَّها مجالس سيِّد الشُّهداء ومجالس الأدعية من دعاء كميل وغيره، هي التي تَصنع مثل هذه النَّماذج وتَبْنيها**»

لقد استلهم الإمام الخميني من خامس أهل الكساء وتَجَلِّي الحقيقة المحمَّديّة الإلتزام بحدود الله تعالى، فكان مُتَّصِفاً بالصِّفات الإيمانيّة، ولم يَكُن عنده هوىً ولا طَمَع دنيوي، فقد جاهد نفسه وتغلَّب عليها وقام بالثَّورة لأجل أداء وظيفته وتكليفه، وكان دائماً يقول: «إنّنا مكلَّفون بواجباتنا، ولسنا مكلَّفين بضمان النَّتائج».

لقد كان المهمّ لديه هو العمل بمسؤوليّاته الدِّينيّة حيال المجتمع والدِّين، ولذا رَفَض أيّ تسوية مع الشّاه أو مع الولايات المتّحدة، ولم يَخَف أحداً، بل كان فعله وقوله من مصاديق الحديث الشَّريف: «**مَن خاف مِن الله خاف منه كلُّ شيء، ومَن لم يَخَفِ الله خاف مِن كلِّ شيء**».

٣ - عدم التَّساوي في معادلة القوى بين الجبهتَين من حيث العدد ومن حيث الإمكانات: في كربلاء كان عدد أفراد جبهة الحقّ ٧٣ مجاهداً في مقابل أكثر من ٣٠٠٠٠ محارب. وفي تجربة الثّورة لم نحارب الشّاه وعملاءه، بل كنّا نواجه أميركا والإتّحاد السّوفياتي في ذاك الوقت، وبعد الإنتصار وقعت الحرب، وفُرِض علينا أن نُواجه جيش صدّام والقوى العالميّة والإقليميّة. والآن لا تزال الثورة تواجه التَّحديّات من جميع القوى الإستكباريّة والإقليميّة.

٤ - في المنهجيّة: منهجنا في الثّورة الإسلاميّة في إيران هو منهج الإمام الحسين عليه السلام في قضيَّة عاشوراء، ويتّضح ذلك من خلال النقاط التاليّة:

أ- كانت بدايةُ حركته الإمام عليه السلام بطَلَبٍ ودعوةٍ مِن أهل الكوفة، ولذا فقد أَسَّس عليه السلام حَرَكَته على أساسٍ شعبيّ، حيث ضمَّت إليها شرائح مختلفة. والإمام الخميني رضوان الله عليه بدأ أيضاً حركته وثورته بالإعتماد على الشَّعب.

ب- منهج الإمام الحسين عليه السلام في قضيّة عاشوراء، كان منهجاً دفاعيّاً؛ لم يَبدأ بالقتال، بل دعا أنصاره وأصحابه لِيُدافعوا عن أنفسهم. وفي الثّورة الإسلاميّة أيضاً كان منهج الإمام دفاعيّاً ولا يَقوم على العنف العسكري، ولم يَسمح باستخدام السِّلاح، مع أنَّ الشّاه دَخَل بكامل جيشه للقضاء على الثّورة والثَّوريّين.

ج- تطبيق الحدود الإلهيّة: لقد استنّ الإمام الخمينيّ بسُنّة رسول الله وأوصيائه عليهم السلام فلم يَخرج عن حدود الإسلام والضَّوابط الدِّينيّة، بل سار بطريق القرآن، وإبّان الثورة ضدّ الشاه رفض قادتُها أيّ عملٍ مخالفٍ للأحكام الإسلاميّة.

هذه بعض ملامح التَّواصل والإشتراك الجوهري بين عاشوراء الحسين عليه السلام والثّورة التي قادها الإمام الخميني قدّس سرّه قبل أكثر مِن ثلاثين عاماً. وها هي الجمهوريّة الإسلاميّة تُواصِل مسيرتها باقتدارٍ وعزّةٍ في مواجهة قوى الشَّرّ العالميّة، وفي مقدّمهم الولايات المتّحدة الأميركيّة.

إنّ ثبات الجمهوريّة اليوم بقيادة الإمام السيّد عليّ الخامنئي دام ظلّه، إنَّما يَعود أصلاً وأساساً إلى ذلك الإلتزام الوَطيد بِرُوح عاشوراء الإمام الحسين عليه السلام، ورسالة النّبيّ الأعظم ﷺ.

أصالة الرُّوح

رؤية الإسلام وفلسفة الغرب

العلّامة الشّهيد مرتضى مطهّري

في هذه المطالعة حول (أصالة الرُّوح) يقدّم العلّامة الشّهيد مرتضى مطهرّي تعريفاً للنّفس وعلاقتها بالجسد. وفيها سنقرأ كيف عالجت الفلسفة الإسلاميّة هذه القضيّة وما لازمها من جدل طويل، وهو ما يزال سارياً في الفكر الفلسفي الحديث بجانبيه الإسلامي والغربي.

المعروف أنّ أرسطو وابن سينا قد توجَّها إلى إثبات الوحدة بين الرُّوح والبدن إلى حدٍّ ما، بينما نظريَّة أفلاطون كانت تبتني على أساس الإثنينيّة والإنفصال بينهما، وأرسطو قد بنى نظريَّته هذه على نظريَّته المعروفة: المادّة والصُّورة.

والآن نأتي إلى الفلاسفة الإسلاميّين بعد إبن سينا، ونرى كيف صوّروا لنا المسألة.

لم يحقِّق الفلاسفة المسلمون في هذا المضمار أيّ تقدُّم يُذكَر، صحيح أنّهم حقَّقوا تقدُّماً هامّاً في أعمٍّ وأهمِّ مسألة من مسائل الفلسفة الأولى -أعني مسائل الوجود- وكان لهذا التقدُّم أثر كبير على أكثر المسائل الفلسفيّة؛ ومن بينها مسألة الحركة والتّرابط، أو الإنفصال بين الرُّوح والبدن.

ولا بدَّ لنا من الإشارة إلى أنّ صدر المتألِّهين الشيرازي كان بطل التّحوُّل في هذه المسألة، أي مسألة الوجود، وعند تأسيسه لأصول جديدة عالية حصلت هذه النتيجة:

توجد إلى جانب الحركات الظاهريّة العرضيّة المحسوسة التي تحكم ظواهر الكون، حركة جوهريّة عميقة غير محسوسة تَحكم جوهر العالم، وهي أصل للحركات الظاهريّة، فإذا فرضنا أنّ هناك مادّة وصورة، فلا بدَّ من فرضهما عن طريق هذه الحركة.

ولا بدَّ من القول بأنّ تكوُّن الأجسام المتنوِّعة إنّما هو نتيجة لهذه الحركة، لا أنّه نتيجة للكون والفساد، وإنّ الرُّوح نفسها هي نتاج لقانون هذه الحركة، وهذا القانون مبدأ لتكوُّن المادَّة نفسها، والمادَّة قادرة على أن تربِّي في حِجرها موجوداً يضاهي ما وراء الطّبيعة، ولا يوجد في الحقيقة ما يحول بين المادَّة وما وراء الطّبيعة، ولا مانع من أن تتحوَّل المادّة بعد اجتيازها لمراحل الرُّقيّ والتّكامل إلى موجود غير مادِّي.

ونظريّة أفلاطون حول مبدأ التّكوُّن للنّفس، ونوع العلاقة بينها وبين البدن غير صحيحة، وهكذا نظريّة أرسطو. ذلك لأنّ نوع العلاقة بين المادّة والحياة -الرُّوح والبدن- أكثر طبيعيّة وجوهريّة من هذه العلاقات المذكورة، إذ نوع العلاقة بينهما إنَّما هي كعلاقة درجة أقوى من الدَّرجة الأضعف لشيءٍ واحد.

جئنا بهذه المقدّمة لأنّ البحث حول إمكانيّة كَوْن الرُّوح من خواصّ المادّة عند تركيب أجزائها لا مفهوم له قبل أن نفهم نوع العلاقة بين الرُّوح والبدن. وهكذا، بعدما ألقينا الضَّوء على نوع العلاقة بين الرُّوح والبدن، تسنح لنا الفرصة كي نتساءل:

هل أنَّ الرُّوح نتيجة لتركيب عناصر المادَّة كسائر النّتائج والخواصّ التي تترتَّب على المادّة في حالتَيْ التّجزُّؤ والتَّركيب؟ أم أنّ المادّة عندما تكون مادّة لا تَتمتَّع بهذه الخواصّ؟ بل هذه الخواصّ إنّما تترتَّب على المادّة عندما تكون في ذاتها وجوهرها متكاملة، حيث تصل إلى مرحلة من الوجود غير المادِّي، والخواصّ الرُّوحيّة إنَّما تكون لهذه المرحلة من الوجود؟

لمّا وصل بنا البحث إلى هنا، لا نجد من الضّروري أن نحدِّد البحث في روح الإنسان والظَّواهر النفسيّة له، بل في إمكاننا أن نتوسَّع في البحث إلى سائر آثار الحياة على الإطلاق، فنقول:

إنَّ الفرق الذي يمكن أن يكون بين آثار الفكر وسائر آثار الحياة هو التَّجرُّد وعدمه، وهنا لسنا في صدد بيان هذا الفرق، فالذي يهمّنا الآن هو أنّ الروح ليست أثراً للمادَّة، بل هي الكمال الجوهري الذي تحصل عليه المادَّة، وهي في مرتبة من مراتبها التَّكامليّة. ففي مرتبتها الكماليّة هذه، تحتوي المادّة على آثار أكثر تنوُّعاً وتطوُّراً من الآثار التي تحتويها قبل بلوغها هذه المرتبة. وطريقة التَّكامل هذه ليست مخصوصة بِرُوح الإنسان أو الحيوان، بل إنّها تعمّ جميع أنواع الحياة.

ومهما كانت حقيقة الحياة سواءً كنّا نَقدر على فهم كُنْهِها أم لم نقدر، فمِن الواضح أنّ بعض الموجودات الحيّة من النَّباتات والحيوانات يتمتَّع بنوعٍ من الآثار والنَّشاطات التي لا تتمتَّع بها الموجودات غير الحيّة.

هذا البعض من الموجودات الحيّة يتمتَّع بخصوصيّات الحفاظ على الذَّات، ويَصُون نفسه من التأثّر بالبيئة، بمعنى أنَّ الموجودات الحيّة إذا وَجَدت نفسها في بيئة ما، فهي تستعدّ بقوّتها الداخليّة للحفاظ على حياتها، ويستعدُّ جهازها الداخلي للمقاومة مع أيّة قوّة مُناوِئة داخل تلك البيئة، حتّى تستقرَّ لها الحياة.

من جانبٍ آخر، توجَد في هذه الموجودات الحيَّة قوّة الإنسجام مع المحيط والبيئة، بينما الموجودات غير الحيَّة لا تتمتَّع بهذه القوة، وهذه الأخيرة إذا وُجِدت في بيئة ما وتوفَّرت الأسباب للقضاء عليها، فإنَّها تفقد المقاومة في الحفاظ على ذاتها. الموجود الحيّ يتمتَّع بالعادات والغرائز، فإذا تواجه مع مزاحم خارجي فإنَّه يتألَّم ويتعذَّب ويَنهار تجاه ذلك المزاحم، ويَفقد توازنه، ولكنَّه مع ذلك يَتعوَّد شيئاً فشيئاً ويكتسب المناعة في وجه الإعتداءات الخارجيّة، وهذا الأمر يتحقَّق نتيجة للنَّشاطات الداخليّة وانطلاقاً من غريزة الحفاظ على الذَّات، ومهما توفَّرت لديه الوسائل فإنَّه يكتسب هذه المناعة. فالنَّبات أو الحيوان بل إنَّ العضو الواحد داخل الجسم إذا واجه حالةً تريد القضاء على حياته وتوازنه، فإنَّه يقدر بصورة تدريجيّة على المقاومة، فَيَد الإنسان الليّنة لا تقدر على مقاومة الأجسام الخشنة مثلاً، ولكنّها تتعوّد تدريجياً على المقاومة؛ فالقوّة الداخلية تقوم بتغييرات في نسج الجلد كي يتوفَّر للجلد التَّمكُّن من المقاومة مع الأجسام الخشنة.

والموجود الحيّ يتمتَّع بخصوصيَّة التَّغذية، فهو يجذب المواد الخارجيّة بقوَّة داخليّة، ثمَّ يقوم بتجزئة وتركيب هذه المواد كي يستمدّ منها البقاء لذاته، بينما الموجود غير الحيّ لا يتمتَّع بهذه الخصوصيّة. ذلك أنَّ الموجود الحيّ أينما كان ينمو بالتدَّريج ويتجدّد ويتكامل ويكتسب القوَّة، حتّى يتأهَّل لتوليد القدرة على إبقاء نسله. فهو يموت ولكنَّه يبقى في أجياله.

فالحياة أينما وُجِدَت فإنَّها تتغلَّب على البيئة المحيطة بها، وتتغلَّب أيضاً على العناصر غير الحيّة من الطّبيعة، فهي تقوم بالتّغييرات في تراكيبها وتعطي لها وضعاً وتركيباً جديداً، فالحياة مصوِّر، ومصمِّم، ومهندس، ورسّام، تتمتّع بخاصّيّة التّكامل والتّقدُّم.

هذه الخواصّ كلّها توجد في الموجود الحيّ، ولا توجد في الموجود غير الحيّ، يقول (كرس موريسن): «إنّ المادّة لا تتمتَّع بأيّ نشاط، والحياة دائماً هي التي تطرح خططاً جديدة وبديعة في كلِّ آن. ومن هنا نعلم أنّ الحياة هي قوّة في نفسها وكمال في ذاتها، وهي فعليّةٌ مستقلَّة توجد في المادّة وتتمتَّع بآثار ونشاطات متنوَّعة غير التي توجد في المادة».

ذكرنا فيما سبق: أنّ علماء أوروبا قد حقَّقوا في علم الحياة تقدُّماً مدهشاً وقد مهَّدوا الأرضيّة للدِّراسات الفلسفيّة حول الرُّوح والبدن، وإن لم يكن هدفهم المنشود الوصول إلى هذه النّتيجة، وفي الحقيقة إنّهم درسوا الحياة والخواصّ الموجودة في الأحياء درساً وافياً وقيّماً يوضِح أصالة الرُّوح.

صحيح أنَّه وجد من العلماء جماعة عرفوا حقيقة الموضوع، وأشاروا إلى أصالة الرُّوح، وصرَّحوا بأنّ الرُّوح قوّة منفصلة، وأنّ آثار الحياة معلولة لهذه القوَّة، لا أنّها معلولة لجمع المادّة وتركيبها وتفريق أجزائها وتأليفها، والذين لا يَرون أصالة الرُّوح أمثال (لامارك) الذي صرَّح «بأنّ طبيعة الحياة لا بُدَّ أن تُدرس ميكانيكيّاً»، عندما نطالع نظريّاتهم بدقَّة نرى أنّ الذي حملهم على إنكار حقيقة الرُّوح هو القول الشائع بينهم بالنّظريّة الإثنينيّة القائلة: بأنَّ الرُّوح والبدن شيئان متنافيان، وأنّ القوَّة الرُّوحيّة منفصلة عن القوَّة الماديّة، وكانوا يزعمون أنّ الرُّوح لو كانت أصيلة لما كانت متأثِّرة بالمحيط والبيئة، وكان مِن اللّازم عندئذٍ أن تكون الرُّوح في حالة واحدة في جميع البيئات والحالات، وكان من اللّازم أيضاً أن لا تتأثَّر بالنّشاطات الفيزيائيّة والكيماويّة للبدن، والحال أنّ جميع المشاهدات العلميّة تشهد بخلاف ذلك.

يقول (لامارك): «ليست الحياة إلَّا عبارة عن كيفيّة التّفاعلات الفيزيائيّة، وأنّ مظاهر الحياة مُستمَدَّة مِن عِلَلٍ فيزيائيّة وكيماويّة، وأنّ منشأ الحياة يوجد في بدن الحيّ».

لقد كان لامارك يحسب أنّ الروح لو كانت أصيلة لما كانت لها علاقة مع العِلَل الفيزيائيّة والكيماويّة، وكان من اللّازم أن لا يوجد منشأ لها في المادّة الحيّة.

لقد ذكرنا سابقاً أنّ هذه هي النظرية الإثنينيّة لـ«ديكارت» -وهي ترجع في الأصل إلى أفلاطون- وقد كلّفت هذه النظرية الفلسفة ثمناً غالياً، فقد حملت العلماء على أن يفكّروا في انفصال الرّوح عن البدن ويجعلوهما طرفين مُتنافيَين عندما يتعرضون لأصالة الرّوح.